دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 43، ملحق 4، 2016

الخطاب السجالي في رسائل علي ومعاوية. آلياته وتقنياته

عيسى عودة برهومة، ماهر أحمد مبيضين *

ملخص

يمثّل الخطاب السّجالي صورةً متميّزة من صور الخطاب يهدف فيه الأنا إلى إظهار تفوّقه على الآخر، وهو خطابٌ إشكالي يتداخل مع الخطاب الحجاجي من حيث توظيف آليات الحجاج بقصد التقليل من شأن الطرف الآخر لكنه يختلف عنه في الوظيفة والهدف، فالرغبة بالتمرّد والخروج عن المألوف وإظهار التفوّق المعرفي هي أساس الخطاب السجالي.

وقد ارتأت هذه الدراسة تحليل الخطاب السجالي في رسائل عليٍّ ومعاوية التي تبادلاها لمّا بويع عليٌّ خليفةً للمسلمين؛ من أجل الوقوف على بعض الآليات والتقانات التي استخدمها المتساجلان في خطابهما، وللتعرف على مقاصدهما.

الكلمات الدالة: الخطاب السجالي، تحليل الخطاب، الحوار، الحجاج.

المقدمة

الخطاب السّجالي (Polemic Discourse) منتوج ثقافي يشتغل على ثقافة الاختلاف بين الأنا والآخر في سياق حواري تفاعُلي وضمن قواعد تواصُلية معيّنة تفرضُها طبيعة الحوار، وقواعده؛ فهو يعبّر عن وجهتي نظر مختلفتين في سياق لغوي ما تتسابق كلّ واحدة منهما للتفوّق على الأخرى فيه، وتجاوزها، ويطرح الخطاب السجالي قضايا إبستمولوجية تجعله مختلفاً عن الخطاب التقليدي تتعلّق بالنّقد المعرفي بين الأنا والآخر، ويوضّح تأثير الأنا في الآخر، وكيف يكتسب الأنا هويّته ووجوده وهو يُحاول أن يكسب رهان التجاوز المعرفي أمام الآخر.

يكتسب السجال أهمية كبرى تنبع من ثقافة الاختلاف التي يتأسس عليها؛ فقد أتاح لنا فرصة الاطّلاع على التطوّر الثقافي والحضاري للأمم المختلفة، فكانت نزعة حب الظهور أمام الآخر والتفوّق عليه كلّها لها دور فاعل في بناء الحضارات المختلفة وازدهارها، كما أنّه الشّاهد على وقوع الحروب بينها إذا ما تحوّل السّجال إلى صراع على السّلطة.

وتضرب لنا الحضارة الإسلاميّة الكثير من الشواهد على وجود السجال بين الناس قديماً بدءاً بالمساجلات الشعرية التي كانت تدور رحاها في سوق عكاظ والمربد ومجالس الخلفاء والمساجلات الشعرية بين الشعراء لمعرفة: أشعر الناس! وكان للتطوّر الحضاري الإسلامي دوره في تطور الخطاب السجالي حين وقف المسلمون يدافعون عن الإسلام في مساجلاتهم مع الملحدين والطاعنين فيه.

ولا غروَ أنّ تطوّر وسائل الاتّصال والإعلام لاسيّما الشابكة أدّت دوراً فاعلاً في تطوّر الخطاب السجالي، فالصّفحات الإلكترونية بأنواعها الشخصيّة والعامة والمدوّنات وصفحات الدردشة على مواقع التّواصُل الاجتماعي تصبح موئلاً خصباً للسجال إذا ما وقع حدثٌ عالميٌّ ما، فتجدها تعجّ بالمحادثات والمساجلات وتعليقات القراء والمشاركين الذين يتناقلون المعلومات ويتبادلونها بينهم. أضيف إلى ذلك البرامج الحوارية سواء المتلفزة أم الإذاعية ترعى الخطاب السجالي المتعلق بمناقشة الموضوعات والقضايا المختلفة، وتحرص على تشجيع البرامج الحوارية المستندة إلى تحقيق أعلى نسبة متابعة واكتساب شهرة على مستوى القنوات المحلية والعالمية من خلال التفاعل بين متناقشَيْن يجلسان وجهاً لوجه، يجري بينهما حوارٌ ونقاشٌ حاد سرعان ما يتحوّل إلى نزاع حار في جو يشوبه التوتر والانفعال.

وتروم هذه الدراسة إلى الكشف عن تقنيات الخطاب السجالي في الرسائل التي كانت متداولة بين علي -كرّم الله وجهه- ومعاوية بن أبي سُفيان- رضي الله عنه- عندما بويع عليٌّ خليفةً للمسلمين بعد مقتل عثمان سنة خمسٍ وثلاثين للهجرة.

* كلية الآداب، الجامعة الهاشمية؛ كلية الآداب، جامعة مؤتة. تاريخ استلام البحث 2015/5/28، وتاريخ قبوله 2015/7/29.

©2016 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

الخطاب السجالي حدوده وغاياته

يعرّف السجال بأنه حوارٌ بين شخصين يستخدمان اللغة في حوارهما وتبادلهما الآراء والحجج المختلفة حول موضوع معيّن، ويستند هذا التعريف إلى ضرورة المواجهة الخطابية والتفاعل الحواري بينهما، فلا يمكن أن يوصف السجال بأنه سجال إذا لم يتضمّن المواجهة الخطابية والتفاعل الحواري بين وجهتي نظر (داسكال، موقع إلكتروني)؛ فالقصد من السجال إظهار الأنا تفوّقها على الآخر، ولا يمكن أن يتحقق مقصدها إلا بالمواجهة الخطابية؛ لذلك فإنّنا نستبعد من التعريف أيّ حوارٍ لم يتضمّن محاولة الأنا التفوّق المعرفي على الآخر، فهو خطاب تتطلّع فيه الأنا إلى التحيّز لرأي، واللجوء إلى التحاجج لتدافع عن رأيها وتتمكّن من إثباته ومن ثَم التفوّق على الخصم.

ويعد الحوار أساس الخطاب السجالي، والهدف من الحوار في الخطاب السجالي تبادل النقد بين وجهتي نظر حول موضوع ما، ومحاولة كل منهما أن تتفوّق على الأخرى، ويشترط الحور في الخطاب السجالي أن يحافظ طرفا السجال على أخلاقيّات الحوار، فإذا فقد هذا الشرط فإنّ السّجال يتملّصُ من بعده الإبستمولوجي ليقبع في دائرة الأيديولوجيات والعصبيّات ليكون إرهاصاً لعمليّة قتالية أو معركة حربية! فوظيفة السجال الحقيقية مختلفة تماماً فالسجال بمعناه الأبستومولوجي لم يُكتب له الوجود من أجل ممارسة القهر والتسلّط والإقصاء ولكن من أجل تنظيم حوار مثمر وفاعل بين الأنا والآخر، استناداً إلى قواعد أبستمولوجية تفرضها طبيعة الحوار وقواعده، وهذا يستلزم من المتساجل أن يدخل في الجدل مع الآخر وهو متسلحٌ بالمعرفة والمنطق والحجة وإلا فإنه سوف يخسر الرهان (يوسف، 2014، ص8).

والسجال موجود في خطاباتنا اليومية نتبادله ونتواصل مع الآخرين عن طريقه دون تخطيط، فنحن عندما نتناقش في القضايا الاجتماعية مثل موضوع: العنف في المدارس، وعمالة الأطفال، أو ارتفاع نسب الطلاق، أو القضايا الاقتصادية مثل: رفع الأسعار، وزيادة نسبة الدين العام، وغيرها من المناقشات فإننا نمارس السجال دون تخطيط مسبق. وغالباً تُترك هذه النقاشات مفتوحة حيث لا يصل المتساجلان إلى اتّفاق حول نقطة معيّنة، وهو ما يصبّ في أساس الخطاب السجالي، فالأصل في الخطاب السجالي أن لا يصلَ إلى نهاية مغلقة بل يجب أن يبقى الطريق مفتوحاً أمام مزيد من النقد المعرفي وتبادل النقد الموضوعي ليحافظ السجال على موضوعه.

والخطاب السجالي خطاب مفتوح يعتمد على الاختلاف في وجهتي نظر؛ لذلك فإنه غالباً لا يتوقّف عند نقطة معيّنة، ويُوظّف فيه المتساجلان آليات الإقناع وأساليب الحجاج المختلفة من أجل أن يدعم كل منهما وجهة نظره ورؤيته للأمور.

وعلى مدى التاريخ الإنساني أسهم الخطاب السّجالي في البناء الحضاري والثقافي في العالم استناداً إلى وظيفته واشتغاله على ثقافة الاختلاف ونقد الآخر، مسجّلاً صوراً حيةً من صور التفاعل التّداولي بين الأفراد والمجتمعات القائم على أسس تداولية وحجاجية في سياقات لغوية مختلفة. من هذه السياقات: السياقات الفلسفية، متمثّلة بالسجالات التي يمكن أن نؤرخ بدايتها إلى التوحيدية (Monotheism) التي سجلت سجالاً مباشراً مع التعددية (Polytheism) التي تأسست مع فيلون الإسكندراني، ثمّ السياقات المتصلة السجال بين بعض الكتاب المسيحيين واليهود منذ عهود قديمة، حيث سجّلت تلك السجالات البداية التاريخية للخطاب السجالي. وفي القرن الخامس عشر الميلادي تجدد وأصبح فاعلاً (العدواني، 2014، ص12).

وبرز بوضوح في المساجلات التي كانت تدور بين الفلاسفة اليونان والرومان منذ أفلاطون في محاوراته التي تناولت موضوعات فلسفية وعلمية مختلفة مثل محاورة كراتيليوس في فلسفة اللغة، ومحاورة هيباس في المنطق، ومحاورته حول نظرية المعرفة وغيرها. وفي القرن الخامس الميلادي ظهرت الحاجة إلى السجال في محاورات أرسطو مع السوفسطائيين وردوده عليهم وتتبّعه مغالطاتهم في كتابه السوفسطيقا أو الحجاج التبكيتي، حيث اتّصفت أعمال هؤلاء الفلاسفة بتوظيف آليات المنطق الصوري من أجل تبكيت الخصم (عادل، 2013، ص57). واستمرّ هذا النوع من السجال الفلسفي حتى وقتنا هذا ونسجل من هذا النمط: كتاب: "دوبلر وزيغلر السجالي"، والذي هو عبارة عن حوار مطول دار بين ريجيس دوبريه وبين المفكر الماركسي جان زيغلر حول الماركسية وما تبقى منها (طرابيشي، 1994).

وفي الحضارة الإسلامية اتّخذه المسلمون آليةً للذّود عن عقيدتهم، والرّد على الطاعنين بها، ومواجهة خصومهم، مثل المساجلات الدينية بين المسلمين من السنة والفِرق الأخرى مثل المرجئة والقدرية والمعتزلة وغيرها[1]. والخطابات السجالية التي تدور بين الخصوم في السياسة والفكر، وما تقدمه بعض البرامج الإعلامية التي تجمع بين فرقاء في موضوع ما، فيحشد كل فريق بيّناته ليقارع الخصم ويحقق نصراً عليه.

فهذه أمثلة بسيطة تدلّ على اشتغال الخطاب السّجالي في المناقشات الفلسفيّة والدينيّة والعلمية وغيرها، إضافةً إلى اشتغاله في المناقشات اليوميّة العاديّة، فالخطاب السجالي هو «شكل من أشكال التفاعل القولي يميّز الخطاب اليومي في

أبسط مظاهره مثل المحادثات العائلية أو المدرسية أو تلك التي تدور في الفضاءات العامة، وفي أخصّ مظاهره مثل النقاشات الفلسفية أو الدينية أو العلمية المختصة» (العيادي، 2012، ص198).

عناصر السجال

إنّ الخطاب السجالي مثل أيّ خطاب تواصلي آخر يتطلّب: مرسلاً ومستقبلاً وجمهوراً وحواراً. وأضاف ووتر هينقراف (Wouter Hanegraaff) عناصر أخرى على الخطاب السجالي، وهي:

1. تتطلب بيئة السجال قدراً من عدم الارتياح ووجود عنصر التهديد، وفي مثل هذه الحالة لا يمكن إيجاد تطوّر في الخطاب السجالي المقترح.

2. أن يكونَ مصدر التهديد غير واضحٍ تماماً، فإن كان العدوّ على عتبة بابك مهدداً إياك بالقتل فلست بحاجةٍ إلى الجدل معه لكنّك بحاجةٍ إلى مهاجمته أو الدفاع عن نفسك.

3. يتطلّب السجال هدفاً وسيكون المثال نقيض النقطة السابقة فإن كان ليس هناك عدو حقيقي أو متخيل فإنّ الخطاب السجالي يموت قبل ولادته.

4. تتطلب بيئة السجال جمهوراً فإذا لم يكنْ هناك جمهورٌ متابع لسجالك ومستمتع به فلن يتطوّر الخطاب السجالي أبداً تحت مظلةٍ أحادية.

5. يحتاج السجال إلى البساطة؛ إذ لا بدّ أن يعتمد الخطاب السجالي على تناقضات بسيطة غير معقدة فالسجال المعقّد الذي يعتمد على مزيدٍ من الحجج والفروق الدقيقة يظل حجاجاً غير مؤثر (هانغراف، د. ت، ص226 – 227).

وهذه العناصر الإضافيّة هي ضرورية من أجل أن يكتسب الخطاب السجالي مظهره الأقرب إلى المباراة الكلامية التي تشبه الحرب باللسان، إضافة إلى كونه يجري بين طرفين يحملان وجهتي نظر متناقضتين، وتسعى كل واحدة منهما إلى التغلب على الأخرى، وإلغائها.

وتقودنا هذه العناصر إلى خصائص العلاقة بين طرفي الخطاب السجالي، التي تتميّز بـ:

1. النّزعة النقدية: فهي تتطلب شكلاً أو نوعاً خاصاً من التنازع بين الطرفين لإظهار التناقض بين الذات وأفعالها بغية تعزيز الطرف الآخر من السجال رؤيته الخاصة.

2. العلاقة الحوارية: وتتطلّب اتباع طرفي السجال سلسلة من الإجراءات المعرفية في التّواصُل التي تشكّل منطق العلاقة الأيديولوجية التي تحكم علاقة الأنا بالآخر في الثقافة.

3. البناء الخاص: تشكّلت بنية هذا الخطاب اللغوية من خلال علاقة تنافسية "أنا" مقابل "أنت" الأمر الذي جعله أكثر توتراً وسجالاً (يوسف، 2014، ص30 – 31).

التفاعل الحواري في الخطاب السجالي

يتأسس الخطاب السجالي في الخطاب على التفاعل الحواري بين الأنا والآخر في سباق التجاوز المعرفي، ويتشكّل التفاعل الحواري في الخطاب السجالي من خلال التفاعل التّواصُلي بين طرفي الخطاب، ويتكون من: التفاعل الذي يعني: الفعل ورد الفعل، وبذلك يكون معناه في الحوار هو المشاركة في الفعل ورد الفعل حول مضامين معينة، والتّواصُل الذي يعني الحالة التي يصير إليها الحوار بين طرفين على الأقل (نظيف، 2010، ص15)، ويقع التفاعل التواصُلي في صلب مفهوم الخطاب السجالي الدال على تبادل النقد المعرفي بين طرفي الخطاب وما يصدر عن كلا الطرفين من فعل ورد الفعل.

ويعرف جاك موشلر (Jacque Moeschler) الحوار بأنه: «نوع من التفاعل اللفظي يلزم فيه المتخاطبون بأن يجادلوا وأنْ يسجلوا نقاطاً على بعضهم البعض وأن يتفاوضوا للوصول أو عدم الوصول إلى حلول» (عادل، 2013، ص110). أضيف إلى ذلك توظيف تقنيات مختلفة من تقنيات الحجاج من أجل التغلب على الآخر، مستفيدين من طاقات اللغة وقدرتها على توصيل مقاصد المتكلم، والأهم من ذلك أنّ امتلاك مفاتيح اللغة يؤهل المتكلم في التعبير عن ذاته وإظهارها أمام الآخر.

ورصد ثلاثة مكوّنات مشكّلة للحوار، وهي:

أ: المبادلة: وتتكوّن على الأقل من مساهمتين حواريتين (دورين للكلام) لمتكلمين مختلفين. فهي إذن مكون مركب.

ب: المداخلة: فهي أكبر وحدة مونولوجية مكونة للمبادلة، وهي تتكون من أفعال الكلام. وتكون إما مركبة إذا تعددت فيها هذه الأفعال، أو بسيطة إذا اقتصرت على واحدٍ منها. وهي على العكس من المبادلة تشكل المساهمة الخاصة لمتكلم معين في سياق مبادلة معين.

ج. فعل اللغة/ الكلام: وهو ما يشكل أصغر وحدة مونولوجية مشكلة للمداخلة(عادل، 2013، ص110).

فالحوار مهمٌّ جداً في الخطاب السجالي؛ وهو المحرّك الأساسي للتفاعل التواصُلي بين طرفي الخطاب، وضروري جداً في تسجيل ما يصير إليه من تنازع وجدل وشعور بالتفوّق أو الخذلان، كما أنّه يكشف عن النّزعة النقديّة عند الطرفين: الأنا والآخر.

ودراسة الحوار في الخطاب السجالي يسهم في تجلية الجانب الحجاجي في التفاعل التواصلي ومعرفة ما استخدمه

المرسل من تقنيات حجاجيّة ووسائل إقناع تعين الأنا على التفوّق على الآخر، «فالحجاج يُعتبر محركاً مهماً للتفاعل الحواري باعتبار أنّ التبادل الحجاجي يهدف التأثير على المعتقدات والسلوكات معاً» (نظيف، 2010، ص9).

والوقوف على تقنيات الحجاج سيعيننا على فهم سير الخطاب السجالي في رسائل علي ومعاوية، فنحن نقف أمام خطابين متناقضين يتشكلان من: الفعل ورد الفعل، مما يهيّئ بيئة خصبة للخطاب الحجاجي بتقنياته المختلفة للظهور ولأداء وظيفته في التأثير؛ فالحجاج بما «هو مجموعة من الحجج العقلية والفلسفية/ أفكار بحاجةٍ إلى خطاب يستوعبها وينقلها من مرقدها الذهني الخاص إلى سياق خطابي عام له نظامه الخاص وتقاليده وبنيته مما يمنحه القدرة على الامتداد المعرفي والتأثير في الخطابات الأخرى» (يوسف، 2014، ص31).

ثمّة فرق بين الخطاب السّجالي والخطاب الحجاجي وإن تقاطعا في أساليب الإقناع وآليات الحجاج المختلفة، وهو أنّ الخطاب الحجاجي هو: الخطاب المؤسس على استخدام آليات الحجاج المختلفة المنطقية وغير المنطقية من أجل التأثير في المتلقي وإحداث تغيير في معتقداته وسلوكه، فهو خطاب لا يتأسس على ثقافة الاختلاف بمقدار حاجته إلى إحداث التغيير في العالم، وقد عرّفه بيرلمان بأنه: «دراسة التقنيات الخطابية التي تمكّن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة»(عادي، 2013، ص85). فالهدف الأساسي للحجاج هو إحداث التغيير في سلوك المتلقي.

أمّا في الخطاب السّجالي فإنّ المتساجلين يوظّفان آليات الحجاج من أجل إظهار تفوّقهما، وتأييداً لوجهتي نظرهما، ولا يهتمّ المساجل بإقناع الطرف الآخر لأن يقبل وجهة نظره أو إحداث التغيير في سلوكه وإلا خرج السجال عن وظيفته الأساسية وهي توجيه النقد المعرفي المتبادل مع المحرص على إبقاء السجال مفتوحاً لمزيد من الحوار المؤسس على احترام وجهة نظر الآخر وتقبل آرائه.

السياق الاجتماعي للخطاب السجالي في رسائل علي ومعاوية رضي الله عنهما

لا يمكن أن نفهم مقاصد الخطاب في رسائل علي ومعاوية– رضي الله عنهما– ونحن في غفلة عن فهم السّياق الاجتماعي لهذه الرسائل؛ فالسّياق الذي يتكوّن من كل الظروف الاجتماعية والعناصر النفسية والثقافية واللغوية وغيرها، والظروف المختلفة المحيطة ببيئة الاتّصال، وقطبي الاتصال المرسل والمستقبل كلها عناصر أساسية لا يمكن للمحلل أن يفهم مقاصد المرسل والتشكيل اللغوي للخطاب إلا بالاعتماد عليها؛ فالخطاب يُحيل على عناصر السّياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي وكذلك في تأويله؛ ممّا يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه (الشهري، 2004، ص39 – 40).

وتتشكّل عناصر سياق الخطاب السجالي في رسائل علي ومعاوية من الأحداث التي أعقبت مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين للهجرة، ومبايعة عليٍّ خليفة للمسلمين بعد عثمان، ورفض معاوية ومن معه من أهل الشام مبايعة عليٍّ بالخلافة.

وليَ عثمان الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب سنة أربع وعشرين للهجرة (ابن الأثير، 1987، 2/ 475)، واستمرت خلافته اثنتي عشرة سنةً انتهت بقتله سنة خمس وثلاثين هجرية.

وفي خلافة عثمان كان معاوية بن أبي سفيان – آنذاك – والياً على منطقة الشام كلّها؛ وقد نال حظاً وفيراً من بين الولاة أيام عثمان؛ فبعد أن كان والياً على دمشق في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، اتّسعت ولايته ليضمّ إليه: الأردن وفلسطين وحمص؛ فتخلص له أرض الشام كلّها، ويصبح أعظم العمال خطراً وأعلاهم قدراً أيام عثمان؛ فقد اجتمعت له الأجناد الأربعة وأصبح بحكم مركزه الجغرافي قوياً إلى حدٍّ غير مألوف (طه، د. ت، 1/ 118)، ومنح أهل الشّام الولاء كلّه لمعاوية.

وبعد مقتل عثمان«انقسمت الرقعة الإسلاميّة قسمين أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة علي من الحجاز والعراق، وقد تدخل فيها مصر حيناً وتخرج منها أكثر الأحايين»(العقاد، د. ت، ص18)، فقد اتفق الصحابة من المهاجرين والأنصار في الحجاز والعراق على مبايعة عليٍّ– رضي الله عنه– ليكون خليفة المسلمين درءاً للفتن التي قصمت ظهر الأمة الإسلاميّة، وأودت بحياة عثمان– رضي الله عنه– وليلمّوا شعث الأمة الإسلامية المنقسمة، وعلى الرّغم من فض علي الخلافة في بداية الأمر إلاّ أنّ إصرارهم على أن يتولى الخلافة جعله ينزل تحت إرادتهم، وبويع خليفة للمسلمين في نفس السنة التي قُتل فيها عثمان. وأرسل إلى معاوية بن أبي سفيان كتاباً يطلب منه القدوم إليه هو ومن معه في الشام، يريد أن يعزله وأن يولّي الشام سهل بن حنيف بدلاً منه، وليبايعه على الخلافة مثلما فعل المسلمون في البصرة والكوفة ومصر، فرفض معاوية أن يترك الشام، وأن يبايع علياً بحجّة أنّه يريد أن يثأر من قتلَةِ عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجعل أمر البيعة مرهوناً بالثأر من قتلة عثمان (ابن الأثير، 1987، 3/ 94). وقد شكّل

رفض معاوية البيعة بحجّة الثأر لعثمان ملابسات المعركة اللسانية التي دارت رحاها بينه وبين علي رضي الله عنه، واستمرّت شهوراً طويلة، من خلال الرسائل التي تبادلها الفريقان وأخذ يكيل فيها معاوية مختلف الاتهامات لعليّ، وعليٌّ يردّ عليه ويدفع هذه الاتّهامات. وبإمكان قارئ هذه الرسائل أن يستشعر تلك المنافسة القوية بينهما التي غلّفت لغة الرسائل، وانعكست على التشكيل اللغوي للرسائل، وعلة الآليات الحجاجيّة ووسائل الإقناع المستخدمة فيها.

تقنيات الخطاب السجاجي في رسائل علي ومعاوية

استخدم علي ومعاوية آليات وتقنيات سجالية معينة في رسائلهم من أجل تحقيق مقاصدهم منها، فعليٌّ الخليفة بمبايعة الناس ومشورتهم يستفيد من طاقات اللغة في إلزام معاوية على القبول به والقدوم من الشام ومن معه لمبايعته.

ومعاوية والي الشام الرجل القوي الداهية المعتدّ بنفسه يرفض هذه الخلافة ويأبى أن يبايع علياً حتى يدلّه على من قتل عثمان– رضي الله عنه–. وستحاول الدراسة أن تقف على هذه التقنيات وجَلْو دلالاتها وأدوارها في الخطاب السجالي.

حجاجيّة القوة والقوة المضادة

استند عليّ – كرم الله وجهه – في خطابه إلى معاوية لمبايعته على الخلافة على السلطتين الاجتماعية والسياسيّة؛ فهاتان السّلطتان قد ترجحان في مقام معين حجاجاً ما (الطلبة، 2008، ص200)، وعليٌّ يقف في مواجهة خطابية مع معاوية يحاول من خلالها أن يؤسس لخطاب حجاجي يلزم من خلاله معاوية بالبيعة، وحجّته في ذلك السلطة السياسية التي استمدّها من بيعة الناس وصار خليفة المسلمين؛ فأرسلَ إلى معاوية خطاباً ليأتيه هو ومن معه في الشام ويبايعوه، فتنضم الشام إلى جانب العراق ومصر تحت ولاية الخليفة علي كرم الله وجهه.

ومما جاء في كتاب علي إلى معاوية: «سلامٌ عليك، أما بعد فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتكَ وأنت بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يُرَدّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إماماً كان ذلك لله رضاً، وإن خرج منهم خارجٌ بطعن أو بدعة رَدّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولّاهُ الله ما تولّى وأصلاه جهنّم وساءت مصيرا» (صفوت، د. ت، 1/ 340).

بدأ عليٌّ خطابه بالجملة الاسمية المؤكدة: "فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتكَ وأنت بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه"، التي أكّد فيها أنّ البيعة لزمت معاوية وقد أجمع الناس على بيعة عليٍّ بالمدينة أسوةً بالخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان، فلا خيارَ أمامه إلا القبول.

وفي قوله: «فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يُرَدّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إماماً كان ذلك لله رضاً، وإن خرج منهم خارجٌ بطعن أو بدعة رَدّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولّاهُ الله ما تولّى وأصلاه جهنّم وساءت مصيرا»، لقد حاول عليّ أن يضع معاوية في دائرة مغلقة ويحاصره بها فلا يجد سبيلاً للخروج منها إلا بالخضوع لشروطها. هذه الدائرة هي: قوّة البيعة السياسية والاجتماعيّة، فالبيعة ملزمة، وكلّ من خرج عنها يُعدّ مرتداً فوجب عقابه حتى يتوب إلى أصحاب الشورى من المهاجرين والأنصار، وإلا حاربوه، واستحقّ غضب الله تعالى، وأدخله نار جهنّم وساءت مصيراً.

والعقاب الإلهي على رفض البيعة هي سلطة دينية تضافرت مع السُّلطة الاجتماعية والسياسية في خطاب علي السجالي من أجل التفوق على معاوية وإلزامه بالخضوع لإرادته والقدوم للبيعة.

أمّا معاوية فقد استمدّ سلطته الحجاجية في سجاله مع علي من قوّتين متداخلتيْن، أولاهما: فتنة مقتل عثمان. وثانيهما: ولاء أهل الشام له؛ فقد استغلّ معاوية مقتل عثمان ليكسب ولاء أهل الشّام ومساندتهم له في رفضه بيعة علي، إذ يُذكر أنّ معاوية أتى بقميص عثمان رضي الله عنه الذي قتل فيه مخّضباً بدمه، ووضع معاوية القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد وثاب إليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر. (الطبري، د. ت، 3/ 70). لقد استفزّت صورة القميص المخضّب بالدماء غضب النّاس، وحزنهم الشديد، فجعلوا يتباكون حوله، وحثّ بعضهم بعضاً على الأخذ بثأره، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله (ابن كثير، د. ط، 7/ 228). لقد هيأت له فتنة مقتل عثمان اكتساب ولاء الناس ممّا يمنحه القوة وفرصة الفوز في سجاله مع علي.

واتّهم معاوية علياً نفسه بقتل عثمان وذلك حين تواطأ مع القتلة حسب ما يدّعي؛ ليزيد من شدّة عداء أهل الشام لعلي ولضمان ولاء أهل الشام له. وظلّت حجة قتل عثمان السلطة التي يستمد منها قوّته الحجاجيّة في كل رسائله، وظلّت الحائل الذي يقف بين معاوية والبيعة. جاء في خطابه إلى علي: «رُمت أمراً لم يرك الله تعالى له أهلاً، ورقيت سُلَّماً وعراً، وحاولت مقاماً دحضاً، وادّعيت

ما لم تجد عليه ناصراً، ولعمري لو وليتها حينئذ لما ازدادت إلا فساداً واضطراباً، ولا أعقبت ولايتكها إلا انتشاراً وارتداداً، لأنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيل على الناس بلسانه ويده، وها أنا سائر إليك في جمع من المهاجرين والأنصار تحفهم سيوف شامية، ورماح قحطانية، حتى يحاكموك إلى الله، فانظر لنفسك وللمسلمين، وادفع إليّ بقتَلة عثمان فإنّهم خاصَّتُك وخُلصاؤك والمُحدقون بك، فإنْ أبيتَ إلا سلوك اللَّجاج والإصرار على الغيّ، فاعلم أنّ هذه الآية نزلتْ فيكَ وفي أهل العراق معك، قال تعالى: "وضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنة، يأتيها رزقُها رغَداً من كلِّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون" (النحل/ 112)» (صفوت، د. ت، ص368).

يسعى معاوية في هذا الخطاب إلى أن يتفوّق على عليّ عن طريق إيجادِ قوةٍ مُضادّة تنجح في نقض قوته ومحوها حتى لاتترك أثراً. وتتمثّل القوّة المضادة بأجناد أهل الشام الموالين له مقابل قوة المهاجرين والأنصار في العراق ومصر الموالين لعلي رضي الله عنه.

وحتى ينجح في ذلك فإنه بحاجةٍ إلى تغذية الشعور والرغبة بالانتقام من قتلة عثمان عند أهل الشام، وحشدهم إلى صفّه، فادّعى أولاً أن علياً ليس أهلا للخلافة، فهو – كما يدّعي – مغرور متكبّر متجبّر، ولو ولي الخلافة بدلاً من عمر وعثمان لعمّ الفساد والخطل في ولايته، واتهمه أيضاً بالتآمر مع قتلة عثمان فهم خاصّته وخلصاؤه – على حدّ تعبيره – وعليه أنْ يسلّمهم له حتى ينالوا جزاءَهم، فإذا انتهى من ذلك توجّه إلى قوّته المضادة يحشدها أمام عليّ حيث جمع إليه المهاجرين والأنصار يدعمهم أهل الشام بسيوفهم ورماحهم لمحاكمته وإلزامه بتسليم قتَلة عثمان إليه، وإذا أبى ذلك فليستعد للحرب.

الاستشهاد

يُعدّ الاستشهاد آلية حجاجيّة تندرج تحت آلية الاحتجاج بالسُّلطة، فالمُساجل في حواره بآيات من القرآن الكريم أو يستعين بالحديث النبوي الشريف من أجل تعزيز موقفه أمام الآخر، فالخطاب الديني هو من أكثر الخطابات في المتلقي، إضافةً إلى ذلك فإن استثمار الشعر لا سيّما شعر الهجاء يُعدّ سلاحاً كلامياً يفوق في قوّته حدّ السّيف؛ لذلك فإنّ المطّلع على الرسائل يجد مادةً وفيرة استثمر فيها المتساجلان الشعر في خطابهما السجالي. فالاستشهاد في رسائل علي ومعاوية اتّخذ ثلاثة صور:

1: الاستشهاد بالقرآن الكريم
2: الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف
3: الاستشهاد بالشعر

أولاً: الاستشهاد بالقرآن الكريم:

عمد معاوية إلى استثمار القرآن الكريم في خطاب يهدد فيه علياً بالحرب إذا لم يسلّمه قتلة عثمان، جاء فيه: «وها أنا سائر إليك في جمع من المهاجرين والأنصار تحفهم سيوف شاميّة، ورماح قحطانية، حتى يحاكموك إلى الله، فانظر لنفسك وللمسلمين، وادفع إليّ بقتَلة عثمان فإنّهم خاصَّتُك وخُلصاؤك والمُحدقون بك، فإنْ أبيتَ إلا سلوك اللَّجاج والإصرار على الغيّ، فاعلم أنّ هذه الصورة نزلتْ فيكَ وفي أهل العراق معك، قال تعالى: "وضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنة، يأتيها رزقُها رغَداً من كلِّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون" (النحل/ 112)» (صفوت، د. ت، ص368).

جاء في تفسير ابن كثير: هذا مثل أريدَ به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، فما جحدت آلاء الله، وكذبت بعثة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم فبدّل الله حالهم، وجاءتهم سنوات عجاف أكلت الأخضر واليابس عقاباً لهم على كفرهم (ابن كثير، 2002م، 4/ 609).

استثمر معاوية النص الديني في سجاله لأنه أراد أن يساوي بين عليّ – رضي الله عنه– وأهل المكة ممّن رفضوا أن يخرجوا مع رسول الله ولم يتحمّلوا أذى السفر في سوء الخلق، واستحقاقهم العقاب؛ ليحشد مزيداً من مشاعر الكره والحقد على عليّ، وليكسب مزيداً من المؤيّدين لموقفه من البيعة، فالقرآن الكريم هو المرجعيّة الدينية الأولى للمسلمين، وعن طريق نصوصه تتّسع دائرة هيمنة معاوية على أهل الشام، ويزداد قوةً، وفي المقابل يضع علياً في موقف ضعيف.

واستعان عليّ في سجاله مع معاوية بالآية الكريمة من سورة التوبة: "ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون" (التوبة/ 9)، لكنّه لم يذكر الآية بلفظها الصريح، بل ضمّنها في كلامه، يقول: «أما بعد: فطالما دعوتَ أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق أساطيرَ، ونبذتموه وراء ظهوركم، وحاولتم إطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم، ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون، ولعمري ليتمّنَّ النور على كرهك»(صفوت، د. ت، ص374).

إن استناد علي على سلطة الجمهور من المهاجرين والأنصار الذين بايعوه على الخلافة، واستثماره الخطاب الديني متمثلاً بالآية الكريمة شكّلا نوعاً من التوازن بين الخطابين في معركةٍ لسانيّة يسعى كلٌّ منهما فيها إلى كسر هذا التوازن وإعادة بناء القوى بما يحقق له النصر في النهاية. فلقد شبّه عليٌّ من خلال تضمين خطابه الآية الكريمة أعمال معاوية

واستغلال قتل عثمان لإثارة الفتن وتهييج الناس عليه بأعمال الكفار الذين يحسبون أنهم قادرون على أن يطفئوا نور الله بضلالهم لكنّ الحقّ بيّن ولن ينجحوا مهما بلغت ضلالتهم. وعليٌّ من جانبه يتوعّد معاوية أنّ كل ما يقوم به من فتن سينقلب عليه وسيندحر في النهاية.

ثانياً: الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف

استشهد معاوية بالحديث النبوي الشريف في رسالةٍ يهاجم فيها علياً ويعيب عليه ترك دار الهجرة، وأنه فضّل الإقامة في الكوفة يقول في خطابه: «ثم تركك دار الهجرة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : "إن المدينة لتنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد"، فلعمري لقد صح وعده وصدق قوله، ولقد نفت خبثها، طردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها، فأقمت بين المصرين، وبعدت عن بركة الحرمين، ورضيت بالكوفة بدلاً من المدينة، وبمجاورة الخورنق والحيرة عوضاً عن مجاورة خاتم النبوة» (صفوت، د. ت، ص366).

يقصد معاوية بدار الهجرة: المدينة المنورة، ومعنى الحديث النبوي الشريف أنّه لن يصبر على الهجرة والإقامة معه في المدينة إلا من ثبت إيمانه، وأما المنافقون وجهلة الأعراب فلا يصبرون على شدّة المدينة، ولا يحتسبون الأجر في ذلك(النووي، 1996، ص506).

فعلي بالنسبة إلى معاوية حاله كحال المنافقين الذين رفضوا الهجرة مع رسول الله ولم يطيقوا الصبر على الأذى، وهو ليس كذلك فخروج علي من المدينة لا يستلزم أن يكون من المنافقين، فهذه حجّة ضعيفة ليس لها محل.

لقد مارس معاوية العنف الرمزي حين شبّه علياً بالخبث الذي لفظته المدينة، ذكر المدائني صاحب شرح نهج البلاغة أنّ علياً ترك الإقامة في المدينة ومجاورة قبر رسول الله لأنّ الواجب على الإمام أن يقدّم الأهمّ فالأهم من مصالح الإسلام، وتقديم قتال أهل البغي على المقام بين الحرمين أولى(المدائني، 1998، 17/ 655)، وهذا ما لم يفهمه معاوية، لقد أسقط معنى الحديث النبوي الشريف على خروج علي من المدينة واتهامه بالنفاق فقط لإشباع رغبته بالتفوق على علي، والتقليل من شأنه، ومكانته؛ حتى يصل إلى فكرة أنه لا يستحق الخلافة.

ثالثاً: الاستشهاد بالشعر:

يُعد الشعر مكوّناً مهماً من مكونات البناء الثقافي والاجتماعي عند العرب، لا سيّما عند القدماء حيث كان الشعر المرآة التي تعكس هويّة الأمة وتكوينها الاجتماعي والثقافي، ووعاء فكرها وحضارتها، لذلك فلم يكن مستغرباً أبداً أن يتمتّع الشعر بالسلطة والقوة الحجاجية في الخطاب السجالي من أجل تفوّق الأنا على الآخر.

لقد استشهد معاوية بشعر كعب بن جعيل الذي يهجو فيه علياً رضي الله عنه، وذلك في رسالة يتّهمه فيها معاوية اتهاماً صريحاً بالتآمر على قتل عثمان، فلو لم يفعل ذلك، ولو كان بريئاً من دمه لأتى إليه وبايعه، يقول في الشعر:

أرى الشامَ تكره ملك العراقَ وأهلَ العراق لها كارهينا

وكلاً لصاحبه مبغضاً يرى كلُّ ما كان من ذاكَ دينا

إذا ما رمونا رميناهم ودِنّاهمُ مثلَ ما يقرضونا

فقالوا لعيٍّ إمامٌ لنا فقلنا رضينا ابنَ هندٍ رضينا

وقالوا أن تدينوا له فقلنا ألا لا نرى أن ندينا

ومن دون ذلك خَرْطُ القَتَادِ وضرْبٌ وطعنٌ وبعضُ الشؤونا

وكل يسرّ بما عنده يرى غشَّ ما في يديه سمينا

فهذا جزء من القصيدة التي نظمها الشاعر في هجاء علي وأهل العراق الذين بايعوه. وتضمنت موضوعات: الكره بين أهل الشام والعراق، وما يتبع ذلك من الخصومة والجدل، ورفض أهل الشام رغم إلحاح العراقيين عليهم ببيعة علي أن يبايعوه. ووصف علي بابن هند من باب العنف الرمزي والإساءة اللفظية.

وتكمُن أهمّية الهجاء بالنّسبة لمعاوية في أنّ الهجاء يدور حول التقليل من شأن المهجوّ، ومهاجمته، فالنّيْل منه، فالهجاء له تأثير نفسي سلبي جداً على المهجو، ويولّد لديه شعوراً بالضّعف والوهن. واستناد معاوية على شعر الهجاء سيهيّئ له الفرصة للنّيْل من عليّ أمام الناس، ولا جرم أنّ اختياره قصيدة هجاء نظمها شاعر غيره سيجعل وقعها أكثر سوءاً على عليّ في سجالهما.

بنية التوازي

تتشكل بنية التوازي في النصوص من التأليف الثنائي لمجموعة من الأنساق التي ترتبط معاً بعلاقات معيّنة دلالية أو تركيبية أو غيرها؛ مما يخلق نوعاً من التوازي بين هذه الأنساق في بنية النص وتظهر لنا في أشكال من الأزواج المتوازية التي

تتفاعل في إنتاج دلالة النص ومقاصد المتكلم.

ومفهوم التّوازي مفهوم حديث نسبياً يُقابله في التراث العربي النقدي والبلاغي مصطلح المشاكلة والتّجانس، فتجانس البلاغة هو: «بيانٌ بأنواع الكلام الذي يجمعه أصلٌ واحدٌ في اللغة، والتّجانُس على وجهين: مزاوجة ومناسبة» (الرماني، والخطابي، والجرجاني، د. ت، ص99)، أمّا المشاكلة فهي مرادف المماثلة، وعرّفها السكّاكي بقوله: «وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقوله:

قالوا اقترح شيئاً نجِدْ لكَ طبخَهُ
قلتُ اطبخوا لي جُبّةً وقميصا»
(السكاكي، 1982، ص161)

لقد عُني القدماء إذن بالتناسُب بين التراكيب في المشاكلة والمزاوجة والمناسُبة عنايتَهم بالمحسنات في البلاغة.

وحديثاً استخدم محمد مفتاح مصطلح التشاكُل ليدلّ على مفهوم التوازي: «تنمية لنواة معيّنة سلبياً أو إيجابياً بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية وتداوليّة ضماناً لانسجام الرسالة» (مفتاح، 1992، ص25). إنّ مفهوم التوازي بالنسبة لمحمد مفتاح مرتبط بوظيفته في النص وهي العمل على انسجام النص.

وفي النّقد الغربي، احتفل ياكبسون ببنية التوازي في الشعر، فهو يعدّه عنصراً مهماً في الفنّ الأدبي، وعدّ نسقاً من التّناسُبات المستمرة على مستويات متعددة: في مستوى تنظيم وترتيب البنى التركيبية وفي مستوى تنظيم وترتيب الأشكال والمقولات النحوية وفي مستوى تنظيم وترتيب الترادفات المعجمية وتطابقات المعجم التامة، وأخيراً: مستوى ترتيب وتنظيم تأليف الأصوات والهياكل التطريزية (ياكبسون، 1988، ص106).

ونروم إلى الوقوف على بنية التوازي في رسالة علي إلى معاوية؛ ففي الخطاب تتفاعل أنساق بنية التوازي الثنائية معاً في إنتاج بنية الخطاب السجالي، وتؤدي دورها في الحجاج الذي يهدف فيه المتكلم إلى إظهار تفوقه على خصمه.

جاء في رسالة عليٍّ إلى معاوية: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان : أما بعد، فقد علمتَ إعذاري فيكم، وإعراضي عنكم، حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له، والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إلي في وفد من أصحابك والسلام» (صفوت، د. ت، 1/ 338 – 339).

تتكوّن بنية السّجال في رسالة علي من التقنيات التالية:

1. التوازي النحوي من خلال تقنية العطف بين الجملتين: «فقد علمتَ إعذاري فيكم، وإعراضي عنكم». والذي تحقق من خلال التتابع بين الجملتين، فعليٌّ يبيّن على الرغم من أنه كان بمقدوره أن يلوم معاوية ويذمّه أيام عثمان، إلا أنّه صفح عنه وأعرض عن إساءته، فهو يمنّ عليه بفضله، وبناء الجملتين بناءً تتوازى بنيتيهما بهذه الصورة منحهما قوةً كلاميّة استعان بها عليّ في سجاله مع معاوية، وإظهار تفوّقه عليه.

2. وأتبع التوازي بالعطف التوازي بترتيب الأصوات وهو ما يسمى في البلاغة: التجنيس في العبارتين السابقتين: حتى كان ما لابدّ منه ولا دفْعَ له». فالتجنيس يعني التشابه بين كلمتين أو أكثر في الحروف، وحصل التجنيس هنا بين الكلمتين: فيكم، وعنكم، وبين الكلمتين: منه، وله، وكان الغرض منه أن يبيّن أنّ قتل عثمان قد وقع، وأنّه لا فائدة من اللوم والذّم، وأنّ حجّتك برفض البيعة حتى تنتقم لقتل عثمان لا قيمة لها الآن. أضيف إلى ذلك ما يحدثه التّجنيس من جَرسٍ موسيقي في النص، ودوره المهم في انسجام العبارات وتوازنها، وفي ما يحمله من دلالات، فهو من ناحيةٍ تداولية يملك القدرة على إحداث التفاعل بين المتلقي والنص. والتفاعل هنا في هذا الخطاب يصبّ في صالح الحوار السجالي بين علي ومعاوية الذي يبغي فيه معاوية التمرد على خليفة المسلمين، وفي المقابل يسعى الخليفة إلى إثبات خطئه ورده إلى الصّواب من خلال هذا التّشاكل في بنية الصوت، فالإيقاع الصّوتي في الخطاب يؤدي دوراً مهماً في تحقيق التفاعل بين المرسل والمتلقي، وفي الخطاب السجالي تعد الطاقات الصوتية التي تُخاطب الأذن مدخلاً مهماً لجذب انتباه المتلقي والتأثير عليه بما يضع الطّرف الآخر من السجال موضعاً محرجاً، حيث يستقطب المتلقي فس صفّه ضدّ الآخر(يوسف، 2014، ص59).

3. التوازي التكراري الذي تمثّل في العبارتين: « قد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل». حيث تكررت في العبارة الأولى كلمة أدبر مرتين، وفي الثانية تكررت كلمة أقبل، وتتعالق العبارتين في علاقة معجميّة قائمةٍ على التضاد بين أدبر التي تعني: ذهب، وأقبلَ التي تعني: حضر. وقصد عليٌّ من هذا النص الموجز أن يلخّصَ الأحداث التي تبعت مقتل عثمان ومبايعته، فقد انقسمت الأمة إلى قسمين بين مؤيّد لعلي ومعارضٍ له، لكنّ هذا لم يتعارض مع تسلّمه مقاليد الخلافة بما أنّه الخليفة ببيعة الأكثرية من المسلمين له؛ لذلك فقد ختمها بالقول: «فبايع من قبلك، وأقبل إلي في وفد من أصحابك والسلام». فهو يأمر معاوية أن يأتيه ويبايعه هو وقومه من أهل الشام.

لقد ظهرت بنية التوازي في خطاب علي ممثلة في ثلاث تقانات، قصدَ منها عليٌّ أن يلزم معاوية بالبيعة فهو خليفة

المسلمين بمشورة من المسلمين أنفسهم، فلا يحقُّ له أن يخرج على أمر الجماعة.

وظهرت بنية التّوازي في كتاب معاوية إلى عليّ يساجله في أمر البيعة، يقول: «أما بعد، فما أعظم الرّين[2] على قلبك، والغطاء على بصرك، الشره[3] من شيمتك، والحسد من خليقتك، فشمِّر للحرب، واصبر للضرب، فوالله ليرجعنّ الأمر إلى ما علمت، والعاقبة للمتقين. هيهات هيهات! أخطأك ما تمنى، وهوى قلبك مع من هوى، فاربَع على ظلعك[4]، وقس شبرك بفترك، لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حِلمه، ويفصِل بين أهل الشك علمُه. والسلام »(صفوت، د. ت، 1/ 376).

تشكّلت بنية التوازي في خطاب معاوية من التقنيات التالية:

– العطف بين عبارات القدح والذّم: «فما أعظم الرّين على قلبك، والغطاء على بصرك، الشره[5] من شيمتك، والحسد من خليقتك». فقد عاب معاوية علياً بأنّ الدّنس يغطي قلبه، وأنّه يفتقد التبصُّر بالأمور، وبخيل وحسود، فإذا ما اتّصف بكل هذه الأوصاف استعدّ للحرب.

– الترادف المعجمي بين: الرّين والغطاء، فالرّين هو الدّنس، والرّين كالصدأ الذي يعلو السّيف فإنه يعلو القلب ويغطيه.قال تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" (المطففين/ 14)، ومعناه: الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب(القرطبي، 1998، 19/ 223).

– التوازي الصوتي بين الكلمات: "قلبكَ، بصركَ، شميتكَ، خليقتكَ"، فقد خُتمت كلّها بصوت الكاف (كاف المخاطب).

– التوازي التركيبي بين العبارتين: «فاربَع على ظلعك، وقس شبرك بفترك»، فكلاهما: أسلوبا أمر قصد منهما معاوية القدح في عليٍّ والتّقليل من شأنه.

لقد أراد معاوية من رسالته هذه القدح في عليٍّ وذمه والتقليل من شأنه؛ فهو لا يستحق الخلافة كما يرى، وفي سبيل تأكيد هذه الفكرة وإثباتها استخدم تقنيات بنية التوازي التي ساعدت في تحقيق التناسب في بنية الخطاب سواء على مستوى التركيب أم المعجم أم الصوت.

استراتيجية الردّ والردّ المباشر

تمثّل الرد المباشر في ردّ معاوية على مجموعة من ادّعاءات واتّهامات معاوية له وجّهها إليه في خطاب عندما طلب منه الإقبال عليه وبيعته على الخلافة. وتشكّلت ردود عليّ من الاستراتيجيات والتقنيات الحجاجيّة التي وظّفها في خطابه إضافةً إلى قوّة الكلمات والعبارات التي استخدمها، فقد تتبع علي كل ادّعاء وردّ عليها واحداً واحداً.

وسنبيّن ردود علي على رسالة معاوية إليه التي جاء فيها:«أما بعد فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين، وخذَّلتَ عنه الأنصار فأطاعك الجاهل، وقري بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس، والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام. ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة؛ لأن أهل البصرة أطاعوك، ولم يطعك أهل الشام. ولا حجتك علي كحجتك على طلحة والزبير؛ لأنهما بايعاك ولم أبايعك أنا. فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه »(صفوت، د. ت، 1/ 351).

تظهر في الرسالة عبارات الذّم التي يستخدمها معاوية ضدّ علي مستنداً إلى سلطة القوة المستمدة من مؤيديه في الشام، ومن حجّته التي جعلها حجر عثرة في أحقية علي بالخلافة، فقد استغلّ معاوية عواطف النّاس وحبهم لعثمان وتألمهم على قتله ورغبتهم الشديدة وإصرارهم على الانتقام من قتلته، فهو يحشد عواطفهم ويستميلهم إليه بما يعينه على تحقيق مآربه.

إنّ إحساس معاوية بالقوّة بسبب تأييد الناس له طبع خطابه في الرسائل بطابع الاستعلاء، والتكبّر فهو يتّهم علياً بقتل عثمان، ويذمّه مدّعياً أنّه لم يطعه إلا الجاهلون والضعفاء، وذلك تقليلاً من شأنه وتحقيراً له، ثمّ إنّه لا سلطة عليه ولا على أهل الشام فهم لم يبايعوه مثلما بايعه أهل البصرة والكوفة، وطلحة والزبير.

ويردّ عليٌّ على معاوية بالقول: « من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب : أما بعد : فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه، زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا؛ وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضربهم بالعمى، وما أُمِرْتُ فلزمتني خطيئة الأمر، ولا قتلتُ فأخافُ على نفسي قِصاصَ القاتل.

وأما قولك إنّ أهل الشام هم حُكّام أهل الحجاز فهات رجلاً من قريش الشام يُقبَلُ في الشورى، أو تحلُّ له الخلافة، فإنْ سمَيْتَ كذَّبك المهاجرون والأنصار، ونحن نأتيكَ به من قريش الحجاز.

وأمّا قولك ادفعْ إليَّ قتَلة عثمان، فما أنت وذاك؟ وها هنا بنو عثمان، وهم أولى بذلك منك، فإن زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منهم، فارجعْ إلى البيعةِ التي لزمتْكَ، وحاكم القوم إليّ.

وأما تمييزك بين أهل الشام والبصرة، بينك وبين طلحة والزبير، فلعمري فما الأمر هنالك إلاّ واحد، لأنها بيعة عامة، لا يتأتّى فيها النظر، ولا يُستأنفُ فيها الخِيار.

وأما شرفي في الإسلام، وقرابتي من النبيِّ – صلى الله عليه وسلم –، وموضعي من قريش، فلعمري: لو استطعتَ دفعَه لدفعتَه» (صفوت، د. ت، 1/ 353 – 354).

تشكّل خطاب عليّ السجالي على رسالة علي من ردوده على كلّ اتّهامٍ أو خبرٍ كاذبٍ من غير دليل، وقد استهلّ خطابه بعبارات السخرية والذم الأقرب إلى الشتيمة؛ حيث وصف معاوية بأنّه رجلٌ يفتقد الحكمة والتبصُّر في الأمور قبل إصدار الإحكام، وفهو يتّبع هواه من غير دليل ولا مشورة ولا مرشد، وهو ما سيثبته عليّ في خطابه الذي تضمّن الردود التالية:

1. تبرئة نفسه من تهمة قتل عثمان التي اتّهمه بها معاوية عن غير دليل وذلك حين ادّعى أنّه تآمر عليه فقُتل.

2. تفنيد ادّعائه بأنّ أهل الشّام هم حُكّام أهل الحجاز، فلا أحدَ من قريش تحلّ له الخلافة، والمهاجرون والأنصار أدرى بذلك.

3. أنّ أهل عثمان من بني أمّية هم الأولى من معاوية في طلب قتلة عثمان، فأمر القصاص من قتلة عثمان ليس من شأنه أبداً، بل هو من حقهم هم، وإذا أصرّ فليلتزم بالبيعة، وليحاكم قتلته إلى خليفة المؤمنين.

4. ويردّ عليٌّ على تمييزه بين أهل الشام والبصرة، وبين طلحة والزّبير في بيعة علي، بأنّ بيعة علي هي بيعة عامة يؤديها إليه كل المسلمين في البصرة والشام دون تمييز، فهي بيعة ملزمة لكل المسلمين دون أي استثناء.

تتبع عليٌّ اتّهامات معاوية واحداً واحداً واتّبع الترتيب المنطقي في الرّد على كل اتهام وقد استغلّ طاقات اللغة الحجاجيّة، وقوّة الكلمات، ونوّع في استخدام بعضٍ من وسائل الإقناع وآليات الحجاج اللغويّة المختلفة من أجل إثبات كذب ادّعاءات معاوية وتفنيدها قاصداً منها إثبات خطأ معاوية والتقليل من شأنه، ولإثبات تفوّقه عليه.

فالكلمات في خطاب عليٍّ تمتلك قوىً حجاجيّة تظهر من خلال الأساليب اللغوية التي استخدمها علي في سجاله، مثل:

1. أسلوب القسم (لعمري) الذي كرره مرّتين في سجاله مع معاوية، مرةً في قوله:

– «ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا».

استخدم القسم ليكذّب اتّهامه بقتل عثمان، فهو لم يكنْ إلا رجلاً من المهاجرين ممن أتاهم خبر مقتل عثمان مثلهم مثل الآخرين. فهو براء من دمه.

– «فلعمري : لو استطعتَ دفعَه لدفعتَه». انّ اتّهام معاويةُ علياً بقتل عثمان يمسّ بكرامته ومكانته بين المسلمين بخاصةٍ بعد أنْ بايعوه ليكون خليفةً عليهم؛ لذلك فلن يكون غريباً على رجلٍ يتّهم علياً بالاتهامات الباطلة دون دليل أن يكذّب حتى نسبه وقرابته من رسول الله، فهو يحاول أن يثبت عن طريق القسم أنّ معاوية قد تمادى في الكذب والادّعاء حتى بلغ مبلغه، ولم يمنعه من الكذب شيء.

2. أسلوب الاستفهام الذي جاء في قوله: «وأمّا قولك ادفعْ إليَّ قتَلة عثمان، فما أنت وذاك؟». وكان الغرض من الاستفهام التّوبيخ والردع، فمعاوية يرفض البيعة حتى يسلّمه علي قتلة عثمان، والأحق في ذلك أهل عثمان لا هو.

3. أسلوب الشّرط في قوله: «فإن زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منهم، فارجع إلى البيعةِ التي لزمتْكَ، وحاكم القوم إليّ».

قصد علي من استخدام الشّرط هنا أن يلزم معاوية بالبيعة، فقد عرفنا أنّ معاوية يرفض أن يبايع علياً مدّعياً أنّه يريد أن ينتقم لمقتل عثمان أولاً، وأنّه اتّهم علياً بالتواطؤ مع القتلة، وردود علي عليه. وبما أنّ الانتقام من قتلة عثمان هو من حقّ أهله لا شأن لمعاوية فيه، فيصير لزاماً عليه أن يبايع علياً ويحتكم إليه في محاسبة القتلة، خوفاً من وقوع الفتنة.

الصمت/ البياض: الكتاب الفارغ

يُقصد بالكتاب الفارغ الكتاب الذي أرسله معاوية إلى علي رداً عليه عندما أرسل إليه كتاباً يأمره فيه بالقدوم من الشام لمبايعته، فكانت المفاجأة أنّ معاوية أرسل إليه كتاباً «عنوانه من معاوية إلى علي وداخله بسم الله الرحمن الرحيم لا غير» (صفوت، د. ت، 1/ 340).

ويحمل الفراغ في خطاب معاوية دلالة سيميائية تتشكل في ما نطلق عليه اسم: سيمياء البياض أو الصّمت. إن موضوع السيميائية هو دراسة العلامات، وإبراز المعنى الذي تحمله هذه العلامات (كورتيس، 2010، ص11)، وتشكّل سيميائية من البياض أو الفراغ في الخطاب يلمح إلى شيءٍ من التعارض مع موضوع السّيميائية ووظيفته، فالصّمتُ «انحباسٌ للكلام واختفاءٌ للعلامة، والبياض خلوُّ النّص من الدّوال» (الجوة، 2008، ص122)، لكنّ الصمت أبلغ من الكلام أحياناً، حين تمرّ بنا مواقف كثيرة لا يُرجى من الكلام فيها أيُّ فائدة، ويكون

الصّمتُ جواباً قاطعاً على كل الأسئلة؛ فالصّمت إذن سيمثل علامة تواصليّة بين أقطاب التواصل في الخطاب، فالصمت لغة تحمل مقاصد المتكلم إلى المتلقي، ويمكن أن نستدل على مقاصد المتكلم من السّياق.

إذن، نحن لا نتكلم عن الصّمت بوصفه عنصراً جمالياً في الخطاب فحسب؛ إذ إنّ امتلاك الصّمت هذه الجمالية لم يمنع من أن يتشكّل علامةً ذات دلالة تؤدي وظيفتها في التّواصُل دون حاجة إلى النطق بكلمة. وفي سياق التّواصُل الشفهي فإنّ العلامات غير اللغوية أقصد بها لغة الجسد وتعابير الوجه إضافة إلى سياق التلفّظ تشكّل اللغة الصامتة التي تؤدي مقاصد المتكلم.

وفي الخطاب المكتوب على نحو ما جاء في خطاب معاوية رداً على خطاب عليّ رضي الله عنه فإنّ عناصر سياق الموقف هي التي ستكشف عن دلالة الصّمت في الخطاب. ويمكننا أن نستدل من هذه العناصر على أنّ الصّمت أو البياض في كتاب معاوية هي تقنية حجاجيّة سجاليّة تقع في مستوى الإجوبة المسكتة، فالبياض في الرسالة لم يكنْ مساحة فارغة من الكلمات فحسب، بل هو لغة الحوار بين المتساجلين معاوية وعلي، فهو علامة على رفض معاوية البيعة، وهو كما استنتج علي محارب له وأنّه لا يجيبه إلى شيءٍ ممّا يريد.

ولم يكنْ الصّمت (الفراغ) العلامة السيميائية الوحيدة في رسالة معاوية، فثمّة علامة سيميائية أخرى هي عبارة البسملة: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وقد شكّلت هذه العبارة مع الصمت في الرسالة ثنائيّة ضدّية فتحت الباب على نحو الكثير من التأويلات، فما فائدة افتتاح خطاب فارغٍ بالبسملة؟

ليس مقبولاً أبداً أن نقول إن معاوية افتتح رسالته بالبسملة سيراً على نهج التأدب والتزاماً بالعرف والتقاليد والسنة الشريفة، فمن لم يفتتح كتابه بحمد الله فهو أجذم، ورسالة معاوية فارغة؛ فسيكون وجودها مخلاً بالفصاحة والبلاغة في الخطاب. وإذا عدنا إلى الرواية مرة أخرى كما وردت في كتاب الإمامة والسياسة وجدنا أنّ معاوية انتخب رجلاً فصيحاً ليردّ على رسالة علي، ذكر صاحب الكتاب: «ثم إن معاوية انتخب رجلا من عبس وكان له لسان فكتب معاوية إلى علي كتابا عنوانه من معاوية إلى علي وداخله بسم الله الرحمن الرحيم لا غير» (الدينوري، 1997، 1/ 72– 73). لقد عُرف معاوية رجلاً داهية، وقد اختار للرد على عليّ رجلاً من فصحاء العرب كتب له في رسالة فارغة البسملة فحسب؛ ليبيّن أنّ معاوية يرفض مبايعة علياً والأدهى من ذلك أنّه يعلن عليه الحرب كما جاء في كتاب الإمامة والسياسة: «فلما قدم الرسول دفع الكتاب إلى علي فعرف علي ما فيه وأن معاوية محارب له»(الدينوري، 1997، 1/ 71)، لقد قصد معاوية من سيميائية الفراغ في سجاله تحقير عليّ وإظهار تفوّقه عليه، ولم يقصد أن يدحض أطروحة عليّ المتعلقة بإلزام معاوية بالبيعة لإجماع الناس على البيعة، ولا أن يلزمه الحجة برفضه، وإلا خرج الخطاب السجالي عن وظيفته الرئيسة وتشابك مع الخطاب الحجاجي، فالخطاب السجالي يهتمّ بفضح الخصم وتحقيره وتبكيته بالكشف عن عيوبه، وإظهار التفوق عليه. أما الخطاب الحجاجي فهو يهتم بدحض أطروحات الخصم وإلزامه الحجة وإقناعه من منطلق عقلي (الصيد، 2013، ص43).

الاستعارة في الخطاب السجالي

يُعدّ الخطاب السجالي في بعض صوره خطاباً فنيًّا بلاغيًّا يرتئي منه المساجل إظهار تفوّقه على خصمه، فهو يتميّز عن الخطابات البلاغية الأخرى مثل الخطابة، والشعر، وغيرها من الخطابات التي تعتمد على الفنون البلاغية لتحقيق الأغراض الجمالية في الخطاب بالدرجة الأولى. أمّا الخطاب السجالي فهو يوظّف الفنون البلاغية من أجل تحقيق مقاصد أخرى غير المقاصد الجمالية تتعلّق بالتقنيات والآليات السجالية التي يتمكن المساجل عن طريقها من التغلب على خصمه في معركته السجالية.

ومن الفنون البلاغيّة التي استعملها علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في سجالهما: فن الاستعارة.

والاستعارة هي: «مجاز لغوي علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وهي تشبيه سُكت عن إحد طرَفيه وهو المشبّه عادة، وذُكر فيه الطرف الآخر وأريد به الطّرف المحذوف» (الزناد، 1992، ص59). والاستعارة فن بلاغي يتأثر بالبيئة الاجتماعية، وطبيعة الثقافة السائدة، وتتقيّد بحدود المكان والزمان؛ ممّا يجعلها قابلة للتغير والتطور باستمرار، وبرهان ذلك استعمال استعارات في الوقت الحالي لم تكن معروفة عند الشعراء قديماً، كذلك الأمر بالنسبة للقدماء فقد عُرفت في الشعر القديم استعارات توقف الشعراء في الوقت الحالي عن استعمالها.

يمكننا أن نفهم الاستعارة في الخطاب السجالي بوصفها «وسيلة لغوية تواصلية، وتفسيرها على المستويين البلاغيّيْن مستوى التواصُل والتفاعل البشري، والمستوى الأدبي والفني» (بلبع، 2005، ص111)، فتحليل الاستعارات في رسائل علي ومعاوية – وفق هذه الرؤية – سيتمّ من خلال الوقوف أولاً على مقاصد المتكلم التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها بالاستعارة، وهذا يعني التفريق بين المعنى الحر (المعنى النحوي) والمعنى التداولي (المعنى السياقي، مقاصد المتكلم) (بلبع، 2005،

ص111)، من أجل فهم طريقة عملها في الخطابات، فالاستعارة مفهوم مشكلٍ أحياناً وتظهر إشكاليتها في كونها فناً مجازياً يستخدم فيه المتكلم الكلمات على النحو الذي لم توضع له، فكيف يقول شيئاً ويريد شيئاً آخر هذا ما تحاول الرؤية التداوليّة للاستعارة الإجابة عنه. وفي الجانب السجالي فإنّ كون الخطاب السجالي خطاباً تواصلياً تفاعلياً له أغراض محددة يضطرنا إلى التعامل مع الاستعارة من خلال وظيفتها في تحقيق المساجل مقاصده من الخطاب وهو التفوق على خصمه في معركتهما اللسانية، والانتصار عليه، فهي عملية تواصلية دفاعية – هجومية مرة أخرى، تتنقل بين المرسل والمتلقي في عملية معرفيّة تواصليّة دفاعيّة ترتدّ من المتلقي إلى المرسل إلى المتلقي مرةً أخرى (يوسف، 2014، ص203).

تنوّعت موضوعات الاستعارة في الخطاب السجالي بين فخر وهجاء وسخريّة، حيث كشف عنها السياق ومقاصد المتكلم، وبرزت في السياق السجالي حاملة المعنى وضده، حتى تشكّلت ثنائيّات ضدّية فرضتها عليها قواعد الخطاب السجالي وموضوعاته. نذكر منها:

1. المدح/ الهجاء. يرتبط المدح بالهجاء بعلاقة ثنائيّة ضدية، يمكن أن ننظر إليها من منظور المرسل الذي يرى في المدح معنىً إيجابياً يتيح له فرصة إظهار نفسه أمام خصمه، ويمنحه الثقة في قدرته على التغلب عليه، وبالنسبة للهجاء فهو ذلك المعنى الإيجابي الذي سيقف بينه وبين المتلقي سداً منيعاً يمنعه من تجاوزه، جاء في خطاب معاوية إلى علي:

«أمّا بعد. فإنّا بني عبد مناف لم نزلْ من قليبٍ واحدٍ، ونجري في حلبة واحدة، ليس لبعضنا على بعض فضل، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر، كلمتنا مؤتلفة وأُلفتنا جامعة ودارنا واحدة يجمعنا كرم العرق، ويحوينا شرف النجار، ويحنو قوينا على ضعيفنا، ويواسي غنينا فقيرنا، قد خلصت قلوبنا من غلِّ الحسد، وطهُرت أنفسنا من خبث النية فلم نزل كذلك حتى كان منك ما كان من الإدهان في أمر ابن عمك، والحسد له، ونصرة الناس عليه، حتى قتل بمشهد منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يد . فليتك أظهرت نصره، حيث أسررت خبره، فكنت كالمتعلق بين الناس بعذر وإن ضعف، والمتبرىء من دمه بدفع وإن وهن، ولكنك جلست في دارك تدس إليه الدواهي، وترسل إليه الأفاعي، حتى إذا قضيت وطرك منه، أظهرت شماتة، وأبديت طلاقة، وحسرت للأمر عن ساعدك، وشمرت عن ساقك، ودعوت الناس إلى نفسك، وأكرهت أعيان المسلمين على بيعتك» (صفوت، د.ت، ص366).

تظهر الاستعارة في خطاب معاوية لتكشف عن البعد الحواري التواصلي في الخطاب الذي قصد منه معاوية أن يُظهر نفسه ابن القبيلة ذات الأصل والشرف والسيادة المتصف أبناؤها بالكرم والخلق الحسن والولاء للقبيلة، فالوحدة التي تربط بين الأبناء وخلوّهم من غلّ الحسد وطهارة نفوسهم من خُبث النية. ثمّ سارت الاستعارة في الاتجاه المقابل الذي يرسّخ صفات السوء في عليّ بن أبي طالب فهو رجل سيء الطبع حسود تآمر على قتل ابن عمه عثمان، حتى قُتل بعلمه ولم يحرّك ساكناً دفاعاً عنه ولا إكراماً لقرابة ولا دِين ولا خُلُق.

وليثبت هذه المعاني استعار صورة القليب وهو البئر، وصورة حلبة السّباق، ليبيّن أنه وقومه يجمعهم أصل واحد وانتماء واحد، فالفرد للجماعة والجماعة للفرد، تربطهم أواصر الوفاء والإخلاص لها، فكلهم سواسية لا فضل لأحد على الآخر لمال أو جاه أو سلطان، بل هي الكلمة الواحدة تجمعهم.

وفي الجانب المقابل من الخطاب استعار معاوية صورة الأفاعي ليبيّن خُبث علي وتآمره على قتل عثمان، أي أنّه هيأ الأسباب لقتله، ولما قُتل لم يرأف به ولم يُعنه على النجاة، بل إنه استغل مقتل عثمان ليجعل نفسه خليفة للمسلمين.

لم يستخدم معاوية الاستعارة ليمدح نفسه، وقبيلته فحسب، لكنّه قصد منها هجاء علي واتّهامه بقتل عثمان، ومعاوية على وعيٍ تام بتأثير الكلمة وما تستكنّه من طاقات، فهو عندما يفتتح خطابه بمديح بني عبد مناف ثمّ ينتقل إلى هجاء علي ويذكر ما صنع بعثمان، وكيف تسبّب بقتله فإنّه انتقل بالمتلقي من فضاء إلى فضاء آخر أكثر قتامة وسوداوية، بما يجعل الكلمات والأساليب اللغوية المستخدمة أكثر قوةً وتأثيراً في المتلقي ويهيئه للدفاع عن نفسه. وهكذا تظهر الاستعارة في الخطاب السجالي في بعدها التفاعلي الحواري، الذي يحفّز المتساجلان على الإبداع والكشف عن طاقات في الحوار لا تتوافر في الخطابات العادية.

ويستعمل علي الاستعارة في رسالة إلى معاوية أراد منها تقديم وعظ معاوية وإرشاده حتى يخرج من طريق الضلال التي يسلكها الآن كما يقول علي.

جاء في رسالته: «من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد. فإن الدنيا دار تجارة، وربحها أو خسرها الآخرة، فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة، ومن رأى الدنيا بعينها، وقدّرها بقدرها، وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مرد له دون نفاذه، ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدوا الأمانة، وأن ينصحوا الغويّ والرشيد، فاتق الله، ولا تكن ممن لا يرجون لله وقاراً، ومن حقّت عليه كلمة العذاب، فإن الله بالمرصاد. وإن دنياك ستدبر عنك، وستعود حسرة عليك، فأقلع عما أنت عليه من الغيّ والضلال

على كبر سنك وفناء عمرك، فإن حالك اليوم كحال الثوب المُهلهل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر.

وقد أرديت جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجاروا عن وجهتهم، ونكصوا على أعقابهم، وتولّوا على أدبارهم، وتولّوا على أدبارهم، إلا من فاء من أهل البصائر، فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من مؤازرتك، إذ حملتَهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد، فاتقّ الله يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك؛ فإن الدنيا منقطعة عنك، والآخرة قريبة منك، والسلام»(صفوت، د.ت، ص371).

استعار عليٌّ موج البحر ليهجو معاوية بسبب خداعه أهل الشام، حين اتّهم علياً بأنه تآمر على قتل عثمان رضي الله عنه، فشبههم بالغريق الذي تغشاه ظلمات البحر، وتتلاطم بها الأمواج. فقد شبّه علي خداع معاوية وما أحدثه من فتن بسبب اتهامه بمقتل عثمان بالبحر، الذي أُلقيَ فيه الناس، وبدؤوا بالغرق شيئاً فشيئاً .. وهكذا حال الفتنة فإنّ الفتنة لا تلبث أن تطأ فكر الرجل حتى تتغلغل إلى قلبه وتنتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، وكانت نهايةُ هؤلاء الناس أن حادوا عن طريق الحق، ورجعوا بالخسران.

إنّ اختيار عليٍّ صورة البحر وصور الغرق والظلمات واستعارتها لذمّ معاوية ولومه على الفتن التي أغرق النّاس فيها بسبب اتهامه بقتل عثمان اختيار ذكّي، يتقاطع مقدار الفتنة التي أشعل نارها معاوية بسبب قتل عثمان، حيث انقسمت الأمة إلى قسمين قسم معه، وقسم مع علي، ورفض معاوية البيعة حتى يأتي به علي بقتلة عثمان، واتهامه علياً بالتواطؤ على قتله، وإثارة الناس وتهييجهم على علي أغرقت الأمة الإسلامية في المزيد من الفتن والحروب سنوات طويلة، وأدت إلى إراقة دماء الكثيرين.

ومن جهة أخرى فإنّ خطاب علي اتّخذ طابعاً وعظياً وإرشادياً، وعالج موضوعات دينية تتعلق بالإعداد للآخرة بالعمل الصالح، والابتعاد عن كل ما يغضب الله، فالدنيا فانية ولا يبقى للإنسان إلا عمله الصالح. واتّخذ علي صفة الواعظ والمرشد، وكان اختياره صورة البحر ذا طابع ديني متأثر بصورة البحر في القرآن الكريم، في قوله تعالى: "أو ظُلُماتٌ في بحرٍ لُجِّي يغشاهُ موجٌ من فوقهِ سحابٌ ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعض" (النور/ 24)، وقصد عليٌّ من ذلك أن يعظ معاوية ليترك طريق الغيّ ويتبع طريق الحق، ويتوقف عن اتهامه بتهم باطلة وتأليب الناس عليه، فالفتنة أشدّ من القتل.

لقد كشفت الاستعارة هنا عن جانب في شخصيّة عليّ، يدلّ على أنّه رجلٌ ذو حكمة وعلم، يُعالج الأمور بكل هدوء ورويّة، وبعقلانيّة، بعيداً عن الجعجعة وذمّ الآخرين، والإساءة لهم؛ لينحو في الخطاب السجالي منحىً آخر بعيداً عن العنف الرمزي، والخصومة والجدل الذي بلا طائل، كما فعل معاوية في معظم رسائله؛ فهو يتجنب الانزلاق في دائرة العنف الرّمزي ويحرصُ على إظهار تفوّقه أمام معاوية بوصفه خليفة المسلمين الذي يعالج أمور المسلمين بحكمة وعدل.

الخاتمة

اهتمت هذه الدراسة بتحليل الخطاب السجالي في رسائل علي ومعاوية التي تبادلاها بعد أن بويع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه؛أجلَ الوقوف على طبيعة الخطاب السجالي ومفهومه، والتقنيات التي استخدمها كل من علي ومعاوية في رسائلهما.

وقد انتهينا إلى مجموعة من النتائج، منها:

1. أنّ الخطاب السجالي خطاب مؤسس على النقد المتبادل والتزاوج المعرفي والتنافس الشديد بين طرفين يحاول كل منهما التفوّق على الآخر في معركتهما الكلامية.

2. يقوم الخطاب السجالي أساساً على التفاعل الحواري بين طرفين باستخدام تقنيات سجالية معيّنة تعينهم على التجاوز المعرفي في حوارهما.

3. يعتمد فهم الخطاب السجالي على السياق الاجتماعي الذي ظهر فيه، وفي موضوع بحثنا كان السياق الاجتماعي للمساجلات يدور في ثلاثة محاور:

1. إلزام علي معاويةَ ببيعته خليفة للمسلمين.
2. رفض معاوية مبايعة علي خليفة للمسلمين.
3. اتهام معاوية علي بالتآمر على قتل عثمان.

3. يختلف الخطاب السجالي عن الخطاب الحجاجي، ففي حين يهدف الأول إلى إثبات التفوق والتجاوز المعرفي للأنا على الآخر، فإن الخطاب الحجاجي يهدف إلى التأثير والإقناع.

4. تنوعت تقنيات الخطاب السجالي التي استعملها علي ومعاوية بين: الاحتجاج بالسلطة، والاستشهاد، والرد والرد المباشر.

5. حاول معاوية من خلال الاستشهاد أن يستغل النصوص المقدّسة من القرآن والسنة الشريفة وتأويلها بما يصبّ في مصلحة سجاله.

الهوامش

(1) للاطلاع على هذه المساجلات يُنظر: السكوني، أبو علي عمر (1976)، عيون المناظرات، تحقيق سعد غراب، د. ط، تونس، منشورات الجامعة التونسية.

(2) الرين: الدّنس، ينظر: ابن منظور (د. ت، مادة ر ي ن)، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر.

(3) الشره: أسوأ الحرص، ابن منظور (د. ت، مادة ش ر ه)، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر.

(4) اربع على ظلعك: أي ارفق بنفسك، ولا تجهدها، ينظر: ابن منظور، مادة: (ظ ل ع).

(5) الشره: أسوأ الحرص، ابن منظور (د. ت، مادة ش ر ه)، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، م (1987)، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن كثير، إ (2002)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، د. ط، المدينة المنورة، دار طيبة.

ابن كثير، إ (د. ت)، البداية والنهاية، د. ط، بيروت، دار المعارف.

ابن منظور، م (د. ت)، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر.

الأزهر ز (1992)، دروس في البلاغة العربية، ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

بلبع، عيد (2005)، الرؤية التداولية للاستعارة، مجلة علامات في النقد، ع23، 2005.

الجوة، أ (2008)، سيميائية البياض والصمت، مجلة علامات، المغرب، ع30.

حسين، ط (د. ت)، الفتنة الكبرى، د. ط، مصر، دار المعارف.

الدينوري، ع (1997م)، الإمامة والسياسة، تحقيق خليل المنصور، د. ط، بيروت، دار الكتب العلمية،

الرماني، والخطابي، و الجرجاني (د. ت)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، ط3، مصر، دار المعارف، ص99.

السكاكي، ي (1982)، مفتاح العلوم، تحقيق عثمان يوسف، ط1، بغداد، دار الرسالة

السكوني، أبو علي عمر (1976)، عيون المناظرات، تحقيق سعد غراب، د. ط، تونس، منشورات الجامعة التونسية.

الشهري، ع (2004)، إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد.

صفوت، أ (د. ت)، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، د. ط، بيروت، دار الكتب العلمية.

الصيد، م (2013)، السجال خطاباً نقدياً، ط1، الدمام، مكتبة المتنبي

الطبري، أبو ج (د. ت)، تاريخ الطبري، د. ط، بيروت، دار الكتب العلمية.

طرابيشي، ج (1994)، كتاب دوبريه وزيغلر السجالي، مجلة أبواب، ع2، شهر سبتمبر.

الطلبة، م (2008)، الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، د. ط، طرابلس الغرب، دار أويا للطباعة والنشر.

عادل، ع (2013)، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1، بيروت، منشورات ضفاف، الجزائر، منشورات الاختلاف.

العدواني، م (2014)، والكعبي، ضياء، الخطاب السجالي في الثقافة العربية مقاربات تأويلية، ط1، بيروت، دار الانتشار العربي.

العقاد، ع (د. ت)، معاوية بن أبي سفيان، د. ط، مصر، نهضة مصر للنشر والتوزيع

العيادي، ب (2012)، السجال في الأدب العربي، أشكاله ووظائفه الجاحظ أنموذجاً، مجلة الأزمنة الحديثة، ع1.

القرطبي، م (1998)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق صدقي جميل، وعرفات العشا، د. ط، بيروت، دار الفكر.

قلعجي، م (1986)، موسوعة فقه عبد الله بن عمر، ط1، بيروت، دار النفائس.

كورتيس، ج (2010)، سيميائية اللغة، ترجمة جمال خضري، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات،

المدائني، أبو حامد عز الدين بن هبة الله (1998)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

مفتاح، م (1992)، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ط3، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي

نظيف، م (2010)، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي (دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية)، د. ط، المغرب، أفريقيا الشرق، المغرب.

النووي، ي (1996)، شرح النووي على مسلم، دمشق، دار الخير.

ياكبسون، ر (1988)، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، ط1، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر والتوزيع.

يوسف، ع (2014)، الخطاب السجالي في الشعر العربي تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد.

نقلاً Dascal, M, Types of Polemics and Types of Polemical Moves, عن الموقع الإلكتروني:

http://www.tau.ac.il/humanities/philos/dascal/papers/pregue.htm

(تاريخ دخول الموقع: 2015/4/29م)

Hangeraaff, W, forbidden knpwledge: anti – esortic polemics and academic research, Aries, valume5, Issue2.

Polemic Discourse in the Messages of Ali & Mo'aaweia

*Issa Barhouma, Maher Mbaydeen **

ABSTRACT

Polemic Discourse represents a distinct image of a speech in which ego aims to show its superiority over the other, which is problematic speech interferes with argumentative discourse in terms of employment pilgrims mechanisms with a view to belittle the other party, but differs in the function and goal, desire rebellion and out of the ordinary and demonstrate the superiority of knowledge is the basis of the Sejal speech.

The study was considered in the analysis of polemics discourse messages between Ali & Mo'aaweia which they sent to each other when Ali been the Khalifa of Muslims; to stand on some of the mechanisms and technologies used by them in their rhetoric, and to identify what they ment.

Keywords: polemics discourse, discourse analysis, dialogue, pilgrims.

* Faculty of Arts, The Hashemite University; Faculty of Arts, Muta University. Received on 28/5/2015 and Accepted for Publication on 29/7/2015.